٤ـ الحديث القدسي

أ ـ تعريف وفروق :

الحديث القدسي : هو ما أسنده النبي عليه الصلاة والسلام إلى الله عز وجل ، أي رُفع إليه ، فأسنده إلى الله ، وصيغته : قال رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه ، ويمكن أن نسميه بالحديث الإلهي أو الرباني ، وهو حديث لنسبته إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

وسميت أحاديث قدسية ، لكونها من عالم القدس والطهارة والتنزيه ، ولتكريمها فهي تصف الله عز وجل وتقدس ذاته الإلهية ، فالموضوعات غيبية متعلقة بالمتشابه المعنوي وهي عقيدة وآداب ربانية ، ولا نجد فيها أحكاماً فقهية .

ولكثرة انشغال المربين والزهّاد وانشغالهم بالوعظ والقلبيات تنتشر بينهم منذ القدم هذه الأحاديث وهي كثيرة في مصنفاتهم ، تحتاج إلى تدقيق وبيان درجة الحديث .

ونستنبط من التعريف أن الكلام الإلهي ثلاثة أقسام :

١ـ القرآن الكريم المعجز بالشكل والمضمون .

٢ـ الكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين عليهم السلام قبل أن يحرفها اليهود وغيرهم ، وهذه مثل التوراة والإنجيل والزبور والصحف النازلة على إبراهيم عليه السلام وغيره ، وهي نصوص غير معجزة بصياغتها وإن اشتملت على المعاني الشريفة ووافقت القرآن بالمقاصد الشرعية العامة .

٣ـ الأحاديث القدسية التي نقلت إلينا آحادية ، وآحاديتها تقع بين تواتر القرآن الكريم وسقوط السند في كتب الأنبياء ، والأحاديث القدسية بهذا كلام إلهي ينسب إليه نسبه إنشاء .

وقد قال الدكتور أبو شهبة رحمه الله : « فإن سألني سائل : لم لَمْ يُكتف بالقرآن الكريم عن الأحاديث القدسية ؟ والجواب : أن الله تبارك وتعالى أراد أن يبين أن بعض كلامه معجز وهو القرآن الكريم ، وبعضه غير معجز وهو الأحاديث القدسية » .

وهو تأويل بعيد ، والسؤال المفترض لا يدل على ذكاء ولا يفيد القضية ، إذ لا يكتفى بالقرآن الكريم ، والحكمة الإلهية اقتضت الوحي الجلي (القرآن) والوحي الخفي (الحديث) وإلا تساءل أحدهم : لم لا يُكتفى بالمكي عن المدني من القرآن ؟

كما أن في جواب الشيخ رحمه الله ضعفاً ، فالعبرة ليست في المغايرة ولا قصد المغايرة ، بل العبرة في تمام الدين ، وليست العبرة أيضاً في الإعجاز ، إذ لم يُقصد بيان الإعجاز في إيجاد الحديث القدسي غير المعجز ، فالحقيقة منوطة بالقضايا والتشريعات إذ يشتمل الحديث القدسي على قضايا غير موجودة في القرآن والمعاني في الطرفين القرآن والقدسي متوافقة متكاملة .

والجدير بالذكر أن التعريف الذي يتفق عليه علماء الحديث وغيرهم يخرج من الحديث القدسي الأفعال الإلهية مثل « جعل الله الرحمة في مئة جزء » والأقوال غير الصريحة مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « أوحي إليّ . . . . » وبهذا يفترق الحديث القدسي عن سائر الأحاديث التي يقبل الرفع فيها للقول والفعل والتقرير .

كما يخرج عن التعريف ما رواه الصحابة رضي الله عنهم من كلام إلهي

في الإسرائيليات[1] التي وردت في التفسير ، مثل قول عمر رضي الله عنه : « حُدّثْتُ أن موسى أو عيسى قال : يا رب ، ما علامة رضاك عن خلقك ؟ فقال الله عز وجل : أن أنزل عليهم الغيث إبان زرعهم » ، ولذلك كان من الخطأ أن يذكره الشيخ محمد المديني (١٢٠٠هـ) في كتابه « الإتحافات السنية » برقم (٨٦١) .

وقد عدّد العلماء فروقاً بين القرآن الكريم والحديث القدسي ، وأولى ما يقال في رأينا : إن المسلَّم به والواضح الجلي أن الأول قرآن والثاني حديث ولكن لا بأس أن نسرد ما ذكروه بالتفصيل والتعليق ونضيف إليها تتمة للبحث :

١ـ وقع التحدّي بالقرآن في مضمونه الشريف وصياغته العليا ، ولم يقع التحدي بالحديث القدسي ، كما لم يقع تحدٍّ من النبي عليه الصلاة والسلام بحديثه عموماً ، فالقرآن معجز والحديث معجب .

٢ـ نقل القرآن الكريم بالتواتر جماعة عن جماعة تواتر صوت وتواتر صورة ، فالقرآن قطعي الثبوت جملة وتفصيلاً ، والحديث القدسي جميعاً ظني الثبوت ، فبعضه آحادي صحيح وبعضه حسن وبعضه ضعيف ، وثمة أحاديث قدسية موضوعة بيّنها العلماء ، وتبعاً لطبيعته الظنية لا يكفر جاحده .

٣ـ ينسب القرآن الكريم إلى الله عز وجل وحده ومباشرة ، أما الحديث القدسي فينسب إلى الله إنشاءً ، ويروى مضافاً للنبي عليه الصلاة والسلام ، فهو إلهي الإنشاء نبوي الإضافة .

٤ـ يُتعبد بتلاوة القرآن الكريم ، فلا تصح الصلاة بدونه كما في صريح

---

(١) راجع من صحاح الأحاديث القدسية ، الشيخ محمد عوامة ، المقدمة .

الحديث وإطباق الفقهاء ، في حين لا يصح أن يُذكر منه شيء في الصلاة ، كما أن الثواب المقرور به على تلاوة القرآن الكريم كثير ، أكثر مما يترتب على قراءة الحديث القدسي .

٥ـ يجوّد القرآن الكريم ويثاب المسلم على التجويد ، ولا يجوّد الحديث القدسي ، بل الأسلم ألا تُجرى عليه قوانين التجويد حتى لا يشبّه بالقرآن .

٦ـ لا يكون القرآن إلا بوحي جليّ ووساطة جبريل ، أما الحديث القدسي فيكون بالإلهام أو المنام أي بالوحي الخفيّ .

٧ـ يقترن وحي القرآن الكريم بمصطلح النزول ، ولا يصح هذا في الكلام على حضور القدسي في ذهنه الشريف عليه الصلاة والسلام .

٨ـ تحرّم رواية القرآن الكريم بالمعنى ولو كان المقصود منه آية وأقل ، في حين تجوز رواية الحديث القدسي بالمعنى لإجماع أغلب العلماء على جواز رواية الحديث النبوي عموماً بالمعنى بشروط الدراية اللغوية والدينية .

٩ـ لا يُمسّ القرآن الكريم إلا على طهارة من الحدثين الأكبر والأصغر ، كما في قوله عز وجل : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٩] ، وتجوز قراءة الحديث النبوي عموماً والقدسي منه على غير طهارة ، إلا إذا أراد المسلم كما يبدو أن يزداد توقيراً للألفاظ النبوية ، تأسياً ببعض العلماء المحدثين الذين كانوا يتوضؤون قبل مجلس العلم رضي الله عنهم .

١٠ـ لا يجوز بيع القرآن الكريم ، ولهذا منعوا التلفظ بكلمة البيع في تداول المصاحف .

١١ـ تسمى الجملة من القرآن الكريم آية ، ويسمى مقدار من الآيات سورة ، ولا يكون هذا في الحديث القدسي ولا غيره .

١٢ـ للقرآن الكريم تجليات صوتية وصرفية ونحوية وغيرها تسمى القراءات ، أما الحديث القدسي فهو كأي حديث يقرأ على وجه واحد ، أما تعدّد الروايات فالمرجّح فيها أن تعود إلى أصل ، وبعض الروايات الحديثية ضعيفة ، أما القراءات المتواترة للآية الواحدة فمستوى واحد من القوة .

١٣ـ يشتمل القرآن الكريم على مواضيع شاملة كلية ، أما الحديث القدسي فهو محدود المواضيع ، وليس فيه تشريع أحكام .

١٤ـ ثمة فرق عظيم وهو أن القرآن المصدر التشريعي الأول ، لذلك كان عدد الدراسات حوله ما يزيد على ثلاثة ملايين ، أما الحديث القدسي فلا يذكر إلا في كتب علوم الحديث وكتب الزهاد والواعظين وكتب النوادر ، وهي قليلة جداً جداً بالنسبة للدراسات القرآنية في الفقه والعقيدة وعلوم القرآن والأصول وعلم الكلام وغير هذا .

ب ـ أمثلة :

١ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تبارك وتعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » رواه مسلم في الزهد ح(٢٩٨٥) وابن ماجه ، وورد في صحيح ابن خزيمة ، وعبارة روايته بحسب السلف .

٢ـ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا عند حسن ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ،

ذكرته في ملأ هم خير منهم ، وإن تقرّب مني شبراً ، تقرّبت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلي ذراعاً ، تقرّبت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

هذا الحديث من مرويات الأئمة مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه ، والباع مقدار بين الذراعين مفتوحتين ، وثمة عبارات تحتاج إلى صرفها عن نطاق الحقيقة مثل نفسي ؛ أي ذاتي المقدسة المنزهة ، وهرولة التي تؤول بالمكرمات الربانية ، وفي الحديث تصعيد لذيذ من القليل إلى الكثير أو من الأدنى إلى الأعلى مما يزيد التشويق إلى الطاعات .

٣ـ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيّ ، والمتجالسين فيّ ، والمتزاورين فيّ ، والمتباذلين فيّ » .

روى هذا الحديث الأئمة مالك وأحمد والحاكم النيسابوري والبيهقي واللفظ للإمام مالك رضي الله عنهم ، وفيه تصعيد بالطاعة من الشعور إلى الحركة القليلة إلى الحركة الكثيرة إلى الحركة المالية التي تفيد تجاوز النفس وشحّها ، حركة إلى الإمام وإلى الأعلى ، ربنا لا تردنا إلى الوراء ولا تثبط هممنا .

٤ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خَصَمْتُه يوم القيامة : رجلٍ أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُوفِه أجره » .

روى الحديث الإمامان أحمد وأبو داود : ٤/ ٢٧٩ ، ورواه ابن ماجه واللفظ له ، وهو قريب بمضمونه الشريف من قضايا الفقه ، إذ يحرّم بيع الأحرار غصباً ، وأكل المال الحرام ، كما يحرم تأخير الأجر على

الأجير ، وله ما يوازيه من النصوص النبوية غير القدسية .

٥ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج في آخر الزمان رجال يختِلون الدنيا بالدين ، يلبَسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عز وجل : أبي يفترون أم عليّ يجترئون ، فبي حلفتُ لأبعثَنّ على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران » .

روى الترمذي هذا الحديث ، وقد مزج بين الحديث العادي والحديث القدسي ، وليس يشترط أن يبدأ بالقدسي مباشرة الذي يصدّر بإسناد الضمائر إلى الله عز وجل .

٦ـ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله عز وجل : « يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا .

ومن الحديث القدسي ما هو ضعيف ومنه ما هو موضوع أقرّ بوضعه الأئمة فالعبرة في السند ولا عبرة لكونه إلهياً مثل حديث : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق ليعرفوني » مقطوع بوضعه .

والجدير بالذكر أن الصحيح من الحديث القدسي أقل من غير الصحيح ، أشار إلى هذا ابن حجر الهيتمي لدى شرحه حديث (يا عبادي) من الأربعين النووية ، فذهب إلى أن عدد الأحاديث القدسية عموماً لا يتجاوز المئة .

والأحاديث القدسية منثورة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد والمجاميع ، ولم تكن مفردة في التصنيف ، ولكن في وقت متأخر سعى بعض العلماء إلى جمعها فمن هذه التصانيف كما تبين لنا :

ـ المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية ، ابن بلبان المقدسي (٦٨٤هـ) جمع فيه مئة حديث .

ـ مشكاة الأنوار ، محيي الدين بن عربي (٦٢٨هـ) وجمع فيه مئة حديث وحديث .

ـ الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للشيخ المحدث محمد عبد الرؤوف المناوي (١٠٣١هـ) وجمع فيه مئتين واثنين وسبعين حديثاً ، مرتبة على حسب حروف المعجم ومجردة من الأسانيد .

ـ الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية للشيخ محمد المديني (١٢٠٠هـ) ، وجمع فيه ثمانمئة وثلاثة وستين حديثاً ، ويشير الرقم إلى التزيد والتساهل في السند .

ـ الأحاديث القدسية ، د . عبد الغفور البلوشي .

ـ الأحاديث القدسية ، تأليف لجنة من العلماء ، مؤسسة المختار بالقاهرة ، واشتمل على ٣٩٩ حديثاً هكذا العدد ، وهي مستمدة من الكتب الستة .

ـ من صحاح الأحاديث القدسية ، الشيخ محمد عوامة ، أصرّ فيه على تمام المئة من الأحاديث .

ـ أدب الأحاديث القدسية ، للأستاذ أحمد الشرباصي ، جمع فيه بعض الأحاديث وعلّق عليها .

ـ الأحاديث القدسية ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ، وفيه أربعمئة حديث وهي مختلفة المراتب مثل سائر الكتب عدا كتاب الشيخ عوامة ، ومشفوعة بشروح منقولة من شرّاح الصحاح وغيرها .

ج ـ مصدر القدسي :

اتخذت حكاية النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي حجة عند بعض العلماء للقائلين بأن اللفظ والمعنى في الحديث القدسي من الله عز وجل ، غير أن أغلبية العلماء يرون أن الصياغة نبوية ، وأن المعنى من عند الله تعالى .

وقد لخّص أبو البقاء الرأي الراجح بقوله : « إن القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحي جليّ ، وأما الحديث القدسي ، فهو ما كان لفظه من عند الرسول عليه الصلاة والسلام ومعناه من عند الله بالإلهام أو المنام »[1] .

وهذا تعريف ابن حجر الهيتمي في شرحه لحديث أبي ذر : « يا عبادي » سابق الذكر من الأربعين النووية ، فقال : « إن القرآن وحي متلو ، والقدسي وحي مروي » .

وينقل بعض المعاصرين ويؤولون ، فيذهبون إلى أن أغلبية العلماء على أن اللفظ والمعنى من الله عز وجل ، وهذا مخالف لطبيعة النص القدسي ومخالف للوقائع ، كما لم يرد أنه عليه الصلاة والسلام أخبر صحابته بوحي القدسي ، وأين التواتر في القدسي ، أيكون الكلام الإلهي ظنياً ؟

قال الدكتور أبو شهبة : « فذهب كثير من العلماء إلى أن لفظه ومعناه من الله تعالى ، وأنه أوحى به إلى النبي ﷺ بأي طريق من طرق الوحي ، وغالباً ما يكون بغير الوحي الجلي ، أما بمكالمة أو إلهام ، أو قذف في القلب ، أو في المنام »[2] .

---

(١) الكليات ص : ٢٨٨ .

(٢) الوسيط : ص ١٩ـ٢١٨ وانظر إتقان البرهان ، د . فضل حسن عباس : ١/ ٥٠ .

وهذا قول عجيب وغالباً ما يكون بغير الوحي الجلي ، وكأنه يحدث أحياناً بوحي جلي ، هذا مخالف للنص والواقع ، ولنستذكر القول الصريح البدهي للإمام الطيبي إذ نقله أبو البقاء : « القرآن هو اللفظ المنزَل به جبريل على النبي ، والقدسي إخبار الله معناه بالإلهام أو بالمنام » ، ثم عكس المقول فذهب إلى أن العلماء فقط يقرون بأن القدسي لفظه من النبوة .

والقائلون بأن الحديث القدسي من كلام الله ربما استأنسوا كما يقول الدكتور محمد أبو زهو بأمور وهي :

١ـ إن هذه الأحاديث أضيفت إلى الله تعالى ، فقيل فيها قدسية وإلهية وربانية ، ولو كان لفظها من عنده ﷺ لما كان لها فضل اختصاص بالإضافة إليه تعالىٰ دون سائر أحاديثه عليه الصلاة والسلام .

٢ـ اشتملت علىٰ ضمائر التكلم الخاصة به تعالى : يا عبادي ، أصبح من عبادي مؤمن .

٣ـ تروىٰ هذه الأحاديث عن الله بتجاوز النبي عليه الصلاة والسلام .

ويفرق الشيخ عبد العزيز دباغ بين القرآن الكريم والحديث القدسي وغير القدسي ، فيقول : « الفرق بين هذه الثلاثة ، وإن كانت كلها خرجت من بين شفتيه ﷺ ، وكلها أنوار من أنواره ﷺ : أن النور الذي في القرآن قديم من ذات الحق سبحانه ، لأن كلامه تعالى قديم ، والنور الذي في الحديث القدسي من روحه ﷺ ، وليس هو مثل نور القرآن ، فإن نور القرآن قديم ، ونور هذا ليس بقديم ، والنور الذي في الحديث الذي ليس بقدسي من ذاته ﷺ ، فهي أنوار ثلاثة ، اختلفت بالإضافة ، فنور القرآن من ذات الحق سبحانه ، ونور الحديث القدسي من روحه ، ونور ما ليس بقدسي من ذاته ﷺ » .

ولما سئل عن الفرق بين نور الروح ونور الذات أجاب : « الذات خُلقتْ من تراب ، ومن التراب خُلق سائر العباد ، والروح من الملأ الأعلى ، وهم أعرف الخلق بالحق سبحانه » وكل واحد يحِنّ إلى أصله ، فكان نور الروح متعلّقاً بالحق سبحانه ، ونور الذات متعلقاً بالخلق .

فلذا ترى الأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه وتعالى ، بتبيين عَظَمته ، أو بإظهار رحمته ، أو بالتنبيه على سعة ملكه وكثرة عطائه . وترى الأحاديث التي ليست بقدسية تتكلم على ما يُصلح البلاد والعباد ، بذكر الحلال والحرام ، والحث على الامتثال بذكر الوعد والوعيد » .

وأقر بأن الحديث القدسي ليس من كلام الله ، وهذا مفحم مقنع ، لأن الكلام كما هو مسلّم لفظاً ومعنىً معاً ، فسئل عن سبب إضافة القدسي لله ، وكيفية التعامل مع إسناد الضمائر ، فقال : « إن الأنوار من الحق سبحانه ، تهب على ذات النبي ﷺ ، حتى تحصل له مشاهدة خاصة ـ وإن كان دائماً في مشاهدة ـ فإن سمع من الأنوار كلام الحق سبحانه ، وأنزل عليه مَلَك ، فذلك هو « القرآن » ، وإن لم يسمع كلاماً ، ولا نزل عليه ملك ، فذلك وقت الحديث القدسي ، فيتكلم عليه الصلاة والسلام ، ولا يتكلم حينئذ إلا في شأن الربوبية ، بتعظيمها وذكر حقوقها .

ووجه إضافة هذا الكلام إلى الرب سبحانه أنه كان مع هذه المشاهدة التي اختلطت فيها الأمور حتى رجع الغيب شهادة ، والباطن ظاهراً ، فأضيف إلى الرب ، ووجه الضمائر أن كلامه عليه الصلاة والسلام خرج على حكاية لسان الحال التي شاهدها من ربه عز وجل .

وأما الحديث الذي ليس بقدسي ، فإنه يخرج مع النور الساكن في ذاته

عليه السلام ، الذي لا يغيب عنها أبداً ، وذلك أنه عز وجل ، أمد ذاته عليه السلام بأنوار الحق ، كما أمدّ الشمس بالأنوار المحسوسة ، فالنور لازم للذات الشريفة لزوم نور الشمس لها » .

فإن كانت الأنوار في ذاته عليه الصلاة والسلام على القدر المعلوم ، فما كان من الكلام حينئذ فهو الحديث الذي ليس بقدسي ، وإن سطعت الأنوار ، وشغلت في الذات ، حتى خرج بها عليه السلام عن حالته المعلومة ، فما كان من الكلام حينئذ ، فهو كلام الله سبحانه ، وهذه كانت حالته عليه السلام حين نزول القرآن عليه ، وإن سطعت الأنوار ولم تخرجه عن حالته عليه السلام فما كان من الكلام حينئذ قيل فيه : حديث قدسي .

وقال : « إذا تكلم النبي ﷺ ، وكان الكلام بغير اختياره فهو « القرآن » ، وإن كان باختياره ، فإن سطعت حينئذٍ أنوارٌ عارضةٌ ، فهو « الحديث القدسي » ، وإن كانت الأنوار الدائمة ، فهو الحديث الذي ليس بقدسي ، ولأجل أن كلامه ﷺ ، لابد أن تكون معه أنوار الحق سبحانه ، كان جميع ما يتكلم به ﷺ وحياً يوحىٰ ، وباختلاف أحوال الأنوار ، افترق إلى الأقسام الثلاثة ، والله أعلم » .

وقال : « وكلامه تعالىٰ لا يخفىٰ بكشفٍ وبغير كشف وكل من له عقل وأنصت للقرآن ثم أنصت لغيره أدرك الفرق لا محالة ، والصحابة رضي الله عنهم ، أعقل الناس وما تركوا دينهم الذي كانت عليه الآباء ، إلا بما وَضَعَ من كلامه تعالىٰ ، ولو لم يكن عند النبي ﷺ إلا ما يشبه الأحاديث القدسية ، ما آمن من الناس أحد ، ولكن الذي ظلت له الأعناق خاضعةً ، هو القرآن العزيز ، الذي هو كلام الرب سبحانه وتعالى » .

وقال : « كل من استمع القرآن ، وأجرى معانِيَهُ على قلبه ، علم علماً

ضرورياً ، أنه كلام الرب سبحانه ، فإن العظمة التي فيه ، والسطوة التي عليه ، ليس إلا عظمة الربوبية ، وسطوة الألوهية وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم من القرآن ربهم عز وجل ، وعرفوا صفاته ، وما يستحقه من ربوبيته ، وقام لهم سماع القرآن في إفادة العلم القطعي به عز وجل ، مقام المعاينة والمشاهدة ، وحتىٰ صار الحق سبحانه عندهم بمنزلة الجليس ، ولا يخفىٰ على أحدٍ جليسه ؟ » .

❊ ❊ ❊